النبي

جبران خليل جبران

دار المحرر الأدبي

obeikandl.com

جبران خليل جبران

(١٣٠١ـ١٣٥٠هـ، ١٨٨٣ـ١٩٣١م)

من أعلام المهجريين اللبنانيين؛ متعدد المواهب، فهو مفكر وكاتب وشاعر وأديب ورسام. ولد في قرية بشرِّي بلبنان الشمالي، وهاجر صغيراً مع عائلته المارونية إلى أمريكا. ثم عاد إلى بيروت، وهو ابن خمسة عشر عامًا، ليدرس العربية والفرنسية في مدرسة الحكمة، وبعد أربع سنوات من الدراسة رجع إلى بوسطن. وبدأ يكتب في جريدة المهاجر العربية مقالات بعنوان دمعة وابتسامة. وأصدر في ١٩٠٥م كتابه الأول الموسيقى، أتبعه بمجموعتي قصص: عرائس المروج؛ الأرواح المتمردة، دعا فيهما إلى إدانة النذالة الاجتماعية والعمل على انتزاع الحرية من أيدي الظالمين.

سافر إلى باريس عام ١٩٠٨م لمتابعة دراسته الفنية، فأقام هناك ثلاث سنوات، تأثّر فيها بفن المثّال العالمي رودان، كما تأثر بالشاعر الإنجليزي وليم بليك صاحب الأثر الأكبر في حياته وإبداعه.

ويعترف جبران بأن هناك ثلاثة من عظماء الإنسانية امتلأ بهم قلبه: محمّدص، ، والمسيح، وعلي بن أبي طالب. عاد من فرنسا إلى بوسطن، وبعد سنة ارتحل إلى نيويورك، وأخذ يقرأ في تلك الفترة مؤلفات نيتشه متأثراً بفلسفته.

وهناك عاملان أثّرا بشكل واضح على جبران وإبداعه هما: العيش في أماكن مختلفة؛ فقد عاش في لبنان، وأمريكا، وفرنسا، وسوريا، ومصر، وبلجيكا، وأزمير، والآستانة (إسطنبول)، وأثينا، وأسبانيا، وإيطاليا؛ وعلاقته بالنساء مثل: ماري هاسكل التي غيّرت مجرى حياته بعطفها عليه وعنايتها به، وسلمى كرامة حبيبته

الأولى وبطلة روايته الأجنحة المتكسّرة، ومي زيادة. فقد كان لهذين المؤثرين الدافع لكتابة أهم رسائله.

شارك في تأسيس الرابطة القلمية في نيويورك، وانتُخب عميدًا لها عام ١٩٢٠م.

وأتحف المكتبة العربية بعدة مؤلفات تُرجمت إلى معظم اللغات، منها: يسوع ابن الإنسان؛ العواصف، ويُعدُّ كتاب النبيِّ أهم كتبه، إذ وضع فيه عصارة فلسفته وخياله الوهاج، فتألق بالحب والجمال والحق، وقد تأثر فيه بكتاب نيتشه هكذا تكلم زرادشت. أما أسلوبه فقد تميّز بالرمزية والصوفية، والدعوة إلى الحرية المطلقة، وفي لغته سهولة تجمع بين الجرأة الوجدانية والتأثير الخطابي الإنجيلي.

توفي إثر إصابته بمرض السُّل، فنُقل جثمانه إلى مسقط رأسه، حيث أقيم له متحف ضم سائر مخلفاته من مؤلفات ولوحات فنية.

وتعد قصيدته المواكب من أجمل شعره أفكاراً وصـوراً ؛ حيث يصور علاقات النفـاق القائمـة بـين النـاس . يقـول فيها :

الخير في الناس مصنوع إذا جُبروا
والشرّ في الناس لايفنى وإن قُبروا
وأكثر الناس آلات تحرّكها
أصابعُ الدهر يومًا ثم تنكسرُ
فأفضل الناس قطعان يسير بها
صوت الرعاة وإن لم يمش يندثرُ

ومن أجمل مقاطعها التي تصور فلسفة جبران قوله :

ليس في الغابات عدلٌ
لا ولا فيها العقابْ
فإذا الصفصاف ألقى
ظلَّه فوق الترابْ
لايقول السرْو هذي

obeikandl.com

بدعةٌ ضد الكتابْ
إنَّ عدل الناس ثلجٌ
إن رأته الشمس ذابْ
أعطني النايَ وغنِّ
فالغِنا عدلُ القلوبْ

obeikandl.com

النبي

وظل المصطفى ، المختار الحبيب ، الذي كان فجراً لذاته ، يترقب عودة سفينته في مدينة أورفليس اثنتي عشرة سنة ليركبها عائدا إلى الجزيرة التي ولد فيها .

و في السنة الثانية عشرة في اليوم السابع من أيلول شهر الحصاد ، صعد إلى قمة إحدى التلال القائمة وراء جدران المدينة و ألقى نظرة عميقة إلى البحر ، فرأى سفينته تمخر عباب البحر مغمورة بالضباب .

فاختلج في أعماقه ، و طارت روحه فوق البحر فرحا ، فأغمض عينيه ، ثم صلي في سكون نفسه .

غير أنه ما هبط عن التلة حتى فاجأته كآبة صماء فقال في قلبه :

كيف أنصرف من هذه المدينة بسلام ، و أسير في البحر من غير كآبة ؟ كلا ! إنني لن أبرح هذه الأرض حتى تسيل الدماء من جراح روحي .

فقد كانت أيام كآبتي طويلة ضمن جدرانها و أطول منها كانت ليالي وحدتي و انفرادي و من ذا يستطيع أن ينفصل عن كآبته ووحدته من غير أن يتألم في قلبه ؟

كثيرة هي أجزاء روحي التي فرقتها في هذه الشوارع و كثيرهم أبناء حنيني الذين يمشون عراة بين التلال فكيف أفارقهم من غير أن أثقل كاهلي و أضغط روحي !

فليس ما أفارقه بالثوب الذي أنتزعه عني اليوم ثم أرتديه غدا ، بل هو بشرة أمزقها بيدي .

كلا و ليس فكرا أخلفه ورائي ، بل هو قلب جملته مجاعتي و جعله عطشي رقيقا خفوقا .

بيد أنني لا أستطيع أن أبطئ في سفري .

فإن البحر الـذي يـدعو كـل الأشـياء إليـه يسـتدعيني فيجب علي أن أركب سفينتي و أسير في الحال إلى قلبه .

ولو أقمت الليلة ههنا ، فـإنني مـع أن سـاعات الليـل ملتهبة ، أجمد و أتبلور و أتقيد بقيود الأرض الثقيلة .

و إنني أود لو يتاح لي أن يصحبني جميع الذين ههنا . و لكن أني يكون لي ذلك ؟ فإن الصوت لا يستطيع أن يحمل اللسان و الشفتين اللواتي تسلحن بجناحيه . و لذلك فهـو وحده يخترق حجب الفضاء . أجل ، و النسر يا صـاح لا يحمل عشه ، بل يطير وحده محلقا في عنان السماء .

و عندما بلغ المصطفى سفر التلة التفت ثانيـة إلى البحـر فرأى سفينته تدنو من المرفأ و أبناء بلاده يروحون و يجيئون على مقدمها .

فهتف لهم من صميم فؤاده و قال :

يا أبنـاء أمـتي الأولى ، أيهـا الراكبـون متـون الأمـواج المذللون مدها و جزرها .

كم من مرة أبحرتم في أحلامي ! و ها قد أتيتم ورأيتكم في يقظتي التي هي أعمق أحلامي .

إنني على أتم الأهبة للإبحار ، و في أعماقي شوق عظيم يترقب هبوب الريح على القلوع بفارغ الصبر .

و لكنني أود أن أتنفس مرة واحدة في هذا الجو الهادئ و أن أبعث بنظرة عطف واحدة إلى الوراء .

و حينئذ أقف معكم ، ملاحا بين الملاحين .

أما أنت أيها البحر العظيم ، أيها الأم الهاجعة .

أنت ايها البحر العظيم الذي فيك وحدك يجد النهر و الجدول سلامهما و حريتهما .

فاعلم أن هذا الجدول لن يدور إلا دورة واحدة بعد، و لن يسمع أحد خريرة على هذا المعبر بعد اليوم و حينئذ آتي إليك ، نقطة طليقة إلى أوقيانوس طليق .

و فيما هو ماشٍ رأى عن بُعد رجالاً و نساء يتركون حقولهم و كرومهم و يهرولون إلى أبواب المدينة .

و سمعهم يصرخون بعضهم ببعض من حقل إلى حقل مرددين اسمه و كل منهم يحدث رفيقه بقدوم سفينته .

فقال في نفسه :

أيكون يوم الفراق يوم الاجتماع ؟

أم يجري على الأفواه أن مسائي كان فجرا لي ؟

و ماذا يجدر بي أن أقدم للفلاح الذي ترك سكته في نصف تلمه و للكرام الذي أوقف دولاب معصرته؟

أيتحول قلبي إلى شجرة كثيرة الأثمار فأقطف منها و أعطيهم ؟ أم تفيض رغباتي كالينبوع فأملأ كؤوسهم ؟

هل أنا قيثارة فتلامسني يد القدير ، أم أنا مزمار فتمر بي أنفاسه ؟

أجل ، إنني هائم أنشد السكينة ، و لكن ما هو الكنز الذي وجدته في السكينة لكي أوزعه بطمأنينة ؟

و إن كان هذا اليوم يوم حصادي ففي أية حقول بذرت بذاري ، و في أي فصل من الفصول المجهولة كان ذلك ؟

و إن كانت هذه هي الساعة التي يجدر بي أن أرفع فيها مصباحي و إضعا إياه على منارتي فإن النور الذي يتصاعد منه ليس مني .

لأنني سأرفع مصباحي فارغا مظلما .

و لكن حارس الليل سيملؤه زيتا و سينيره أيضاً .

قال هذا معبرا عنه باللفاظ . و لكن كثيرا مثل هذا حفظه في قلبه من غير أن يعلنه لأنه هو نفسه لم يقدر أن يوضح سره العميق .

و عندما دخل المدينة استقبله الشعب بأسره ، و كانوا يهتفون له مرحبين به بصوت واحد .

فوقفه شيوخ المدينة و قالوا له :

بربك لا تفارقنا هكذا سريعاً .

فقد كنت ظهيرة في شفقنا .

و قد أوحى شبابك الأحلام في نفوسنا .

و أنت لست بالغريب بيننا ، كلا ، ولا أنت بالضيف بل أننت ولدنا و قسيم أرواحنا الحبيب .

فلا تجعل عيوننا تشتاق إلى رؤية وجهك .

ثم قال له الكهان و الكاهنات :

لا تأذن لأمواج البحر أن تفصل بيننا فتجعل الأعوام التي قضيتها بيننا نسيا منسيا .

فقد كنت فينا روحا محيية و كان خيالك نورا يشرق على وجوهنا .

قد تعشقتك قلوبنا و علقتك أرواحنا .

و لكن محبتنا تقنعت بحجب الصمت ، فلم نستطع أن نعبر عنها .

بيد أنها تصرخ إليك الآن بأعلى صوتها و تمزق حجبها بيديها لكي تظهر لك حقيقتها .

فإن المحبة منذ البدء لا تعرف عمقها إلا ساعة الفراق .

obeikandl.com

ثم جاء إليه كثيرون متوسلين متضرعين . فلم يرد على أحد جوابا . و لكنه كان يحني رأسه و كان الواقفون حوله ينظرون عبراته تتساقط بغزارة على وجنتيه و صدره .

و ظل يمشي مع الشعب حتى وصلوا إلى الساحة الكبري أمام الهيكل .

obeikandl.com

المِطْرَة

وحدث إذ امرأة عرّافة خرجت من المقدس ، اسمها المطرة . فنظر إليها نظرة ملؤها الحب و الحنان ، لأنها كانت أول من سعى إليه و آمن به مع أنه لم يكن له إلا ليلة وضحاها في مدينتهم .

فحيته باحترام و قالت له :

يا نبي الله طالما كنت تسعى وراء ضالتك المنشودة ، مفتشا سفينتك التي كانت بعيدة عنك .

و ها قد وصلت سفينتك و لم يبق من بد لسفرك .

عظيم هو حنينك إلى أرض أحلامك و تذكاراتك و مواطن الفائقات من رغباتك و لذلك فإن محبتنا لا تقيدك و حاجتنا إليك لا تمسك بك و لكننا واحدة نسألك قبل أن تفارقنا :

أن تخطب فينا و تعطينا من الحق الذي عندك .

و نحن نعطيه لأولادنا وأولادنا لأولادهم و حفـدتهم و هكذا يثبت كلامك فينا على ممر العصور .

ففي وحـدتك كنـت ترقـب أيامنـا و في يقظتـك كنـت تصغي إلى بكائنا و ضحكنا في غفلتنا .

لذلك نضرع إليك أن تكشف مكنوناتنا لذواتنا و تخبرنا بكل ما أظهر لك من أسرار الحياة من المهد إلى اللحد .

فأجاب قائلاً :

يا أبناء أورفليس : بماذا أحدثكم إن لم أظهـر لكـم مـا يختلج في نفوسكم و تتحـرك بـه ضـمائركم حتـى في هـذه الساعة ؟

obeikandl.com

المحبة

حينئذ قالت له المطرة : هات لنا خطبة في المحبة .

فرفع رأسه و نظر إلى الشعب نظرة محبة و حنان فصمتوا جميعهم خاشعين .

فقال لهم بصوت عظيم :

إذا أشارت المحبة إليكم فاتبعوها ، وإن كانت مسالكها صعبة متحدرة .

و إن ضمتكم بجناحيها فأطيعوها ، و إن جرحكم السيف المستور بين ريشها .

و إن خاطبتكم المحبة فصدقوها ،

و إن عطل صوتها أحلامكم و بددها كما تجعل الريح الشمالية البستان قاعا صفصفا .

لأنه كما أن المحبة تكللكم فهي أيضاً تصلبكم .

obeikandl.com

و كما تعمل على نموكم ، هكذا تعلمكم و تستأصل الفاسد منكم .

و كما ترتفع إلى أعلى شجرة حياتكم فتعانق أغصانها اللطيفة المرتعشة أمام وجه الشمس ، هكذا تنحدر إلى جذورها الملتصقة بالتراب و تهزها في سكينة الليل .

المحبة تضمكم إلى قلبها كأغمار الحنطة .

و تدرسكم على بيادرها لكي تظهر عريكم .

و تغربلكم لكي تحرركم من قشوركم .

و تطحنكم لكي تجعلكم أنقياء كالثلج .

و تعجنكم بدموعها حتى تلينوا .

ثم تعدكم لنارها المقدسة ، لكي تصيروا خبزا مقدسا يقرب على مائدة الرب المقدسة .

كل هذا تصنعه المحبة بكم لكي تدركوا أسرار قلوبكم ، فتصبحوا بهذا الإدراك جزءا من قلب الحياة .

غير أنكم إذا خفتم و قصرتم سعيكم على الطمأنينة و اللذة في المحبة :

فالأجدر بكم أن تستروا عريكم و تخرجوا من بيدر المحبة إلى العالم البعيد حيثما تضحكون ، و لكن ليس كل ضحككم ، و تبكون و لكن ليس كل ما في مآقيكم من الدموع .

المحبة لا تعطي إلا نفسها و لا تأخذ إلا من نفسها .

المحبة لا تملك شيئا ولا تريد أن يملكها أحد :

لأن المحبة مكتفية بالمحبة .

أما أنت إذا أحببت فلا تقل : " إن الله في قلبي " بل قل بالأحرى : " أنا في قلب الله " .

ولا يخطر لك البتة أنك تستطيع أن تتسلط على مسالك المحبة . لأن المحبة ، إن رأت فيك استحقاقاً لنعمتها ، تتسلط هي على مسالكك .

والمحبة لا رغبة لها إلا في أن تكمل نفسها .

و لكن إذا أحببت و كان لابد من أن تكون لك رغبات خاصة بك فلتكن هذه رغباتك :

أن تذوب و تكون كجدول متدفق يشنف آذان الليل بأنغامه .

أن تخبر الآلام التي في العطف المتناهي .

أن يجرحك إدراكك الحقيقي للمحبة في حبة قلبك ، و أن تنزف دماؤك و أنت راض مغتبط .

أن تنهض عند الفجر بقلب مجنح خفوق فتؤدي واجب الشكر ملتمسا يوم آخر .

أن تستريح عند الظهيرة و تناجي نفسك بوجد المحبة .

أن تعود إلى منزلك عند المساء شاكراً :

فتنام حينئذ و الصلاة لأجل من أحببت تتردد في قلبك و أنشودة الحمد و الثناء مرتسمة على شفتيك .

obeikandl.com

الزواج

ثم قالت له المطرة ثانية : و ما رأيك في الزواج أيها المعلم ؟ فأجاب قائلا : قد ولدتم معاً ، و ستظلون معاً إلى الأبد .

و ستكونون معاً عندما تبدد أناملكم أجنحة الموت البيضاء .

أجل و ستكونون معاً حتى في سكون تذكارات الله .

و لكن فليكن بين وجودكم معا فسحات تفصلكم بعضكم عن بعض ، حتى ترقص أرياح السموات فيما بينكم .

أحبوا بعضكم بعضا : و لكن لا تقيدوا المحبة بالقيود ، بل لتكن المحبة بحرا متموجا بين شواطئ نفوسكم .

ليملأ كل واحد منكم كأس رفيقة و لكن لا تشربوا من كأس واحدة .

أعطوا من خبزكم كل واحد لرفيقه لا تأكلوا من الرغيف الواحد . غنوا وارقصوا معا و كونوا فرحين أبدا و لكن فليكن كل منكم وحده .

كما أن أوتار القيثارة يقوم كل واحد منها وحده و لكنها جميعا تخرج نغما واحدا .

ليعط كل منكم قلبه لرفيقه و لكن حذار أن يكون هذا العطاء لأجل الحفظ لأن يد الحياة وحدها تستطيع أن تحتفظ بقلوبكم .

قفوا معا و لكن لا يقرب أحدكم من الآخر كثيرا : لأن عمودي الهيكل يقفان منفصلين .

و السنديانة و السروة لا تنمو الواحدة منهما في ظل رفيقتها .

الأبناء

ثم دنت منه امرأة تحمل طفلها على ذراعيها و قالت له : هات حديثنا عن الأولاد .

فقال :

إن أولادكم ليسوا أولادا لكم .

إنهم أبناء و بنات الحياة المشتاقة إلى نفسها ، بكم يأتون إلى العالم و لكن ليس منكم .

ومع أنهم يعيشون معكم فهم ليسوا ملكا لكم .

أنتم تستطيعون أن تمنحوهم محبتكم و لكنكم لا تقدرون أن تغرسوا فيهم بذور أفكاركم لأن لهم أفكارا خاصة بهم .

و في طاقتكم أن تصنعوا المساكن لأجسادهم .

و لكن نفوسهم لا تقطن في مساكنكم .

فهي تقطن في مسكن الغد الذي لا تستطيعون أن تزوروه لا في أحلامكم .

و إن لكم أن تجاهدوا لكي تصيروا مثلهم .

و لكنكم عبثا تحاولون مثلكم .

لأن الحياة لا ترجع إلى الوراء ولا تلذ لها الإقامة في منزل الأمس . أنتم الأقواس و أولادكم سهام حية قد رمت بها الحياة عن أقواسكم فإن رامي السهام ينظر العلامة المنصوبة على طريق اللانهاية ، فيلويكم بقدرته لكي تكون سهامه سريعة بعيدة المدى .

لذلك فليكن التواؤكم بين يدي رامي السهام الحكيم لأجل المسرة و الغبطة لأنه كما يحب السهم الذي يطير من قوسه ، هكذا يحب القوس التي تثبت بين يديه .

obeikandl.com

العطاء

ثم قال له رجل غني : هات حدثنا عن العطاء .

فأجاب قائلاً :

إنك إذا أعطيت فإنما تعطي القليل من ثروتك .

و لكن لا قيمة لما تعطيه ما لم يكن جزءا من ذاتك .

لأنه أي شيء هي ثروتك ؟

أليست مادة فانية تخزنها في خزائنك و تحافظ عليها جهدك خوفاً من أن تحتاج إليها غدا ؟

و الغد ، ماذا يستطيع الغد أن يقدم للكلب البالغ الفطنة الذي يطمر العظام في الرمال غير المطروقة وهو يتبع الحجاج إلى المدينة المقدسة ؟

أوليس الخوف من الحاجة هو الحاجة بعينها ؟

أوليس الظمأ الشديد للماء عندما تكون بئر الماضي ملآنة هو العطش الذي لا تروي غلته ؟

من الناس من يعطون قليلاً من الكثير الذي عندهم وهم يعطونه لأجل الشهرة ورغبتهم الخفية في الشهرة الباطلة تضيع الفائدة من عطاياهم .

و منهم من يملكون قليلا و يعطونه باسره .

و منهم من يؤمنون بالحياة و بسخاء الحياة هؤلاء لا تفرغ صناديقهم و خزائنهم ممتلئة أبدا .

و من الناس من يعطون بفرح و فرحهم مكافأة لهم .

و منهم من يعطون بألم و المهم معمودية لهم .

و هنالك الذين يعطون ولا يعرفون معني للألم في عطائهم ولا يتطلبون فرحا ولا يرغبون في إذاعة فضائلهم هؤلاء يعطون مما عندهم كما يعطي الريحان عبيره العطر في ذلك الوادي .

بمثل ايدي هؤلاء يتكلم الله و من خلال عيونهم يبتسم على الأرض : جميل أن تعطي من يسألك ما هو في حاجة إليه .

و لكن أجمل من ذلك أن تعطي مـن لا يسـألك و أنـت تعرف حاجته ، فإن من يفتح يديـه و قلبـه للعطـاء يكـون فرحه بسعيه إلى من يتقبل عطاياه و الاهتداء إليه اعظم منـه بالعطاء نفسه .

و هل في ثروتك شيء تقدر أن تستبقيه لنفسك ؟

فإن كل ما تملكه اليوم سيتفرق ولاشك يوما ما .

لذلك أعط منه الآن ليكون فصـل العطـاء مـن فصـول حياتـك أنـت دون ورثتـك . و قـد طالمـا سمعتـك تقـول متبجحا : " إنـني أحـب أن أعطـي . و لكـن المسـتحقين فقط " .

فهل نسيت يا صاح ، أن الأشجار في بساتينك لا تقول قولك ، و مثلها القطعان في مراعيك ؟

فهي تعطي لكي تحيا ، لأنها إذا لم تعط عرضت حياتها للتهلكة .

الحق أقول لـك ، إن الرجـل الـذي اسـتحق أن يتقبـل عطية الحياة و يتمتع بأيامه و لياليه ، هو مستحق لكل شيء منك . و الذي اسـتحق أن يشـرب مـن أوقيـانوس الحيـاة يستحق أن يملأ كاسه من جدولك الصغير .

لأنه أي صـحراء أعظـم مـن الصـحراء ذات الجـرأة و الجسارة على قبول العطية بما فيها من الفضل و المنة ؟

و أنـت مـن أنـت حتـى أن النـاس يجـب أن يمزقـوا صدورهم و يحسروا القناع عن شـهامتهم و عـزة نفوسـهم لكي ترى جدارتهم لعطائـك عاريـة و انفـنهم مجـردة عـن الحياء ؟

فانظر أولاً هل أنت جدير بـأن تكـون معطـاء ، و آلـة العطاء .

لأن الحياة هي التي تعطي للحياة في حـين أنـك و أنـت الفخور بأن قد صدر العطاء منـك لسـت بالحقيقـة سـوى شاهد بسيط على عطائك .

أما انتم الذين يتناولون العطاء و الإحسان – و كلكم منهم – فلا تتظاهروا بثقل واجب معرفة الجميل . لئلا تضعوا بايديكم نيرا ثقيل الحمل على رقابكم و رقاب الذين أعطوكم .

لأنكم إذا أكثرتم من الشعور بما أنتم عليه من الدين فإنكم بذلك تظهرون الشك و الريبة في أريحية المحسن الذي أمه الأرض السخية و أبوه الرب الكريم .

obeikandl.com

الغذاء

و بعد ذلك جاء إليه فندقيّ شيخ و قال له : هات حديثنا عن المأكل و المشرب .

فأجاب قائلاً :

أود لو أنك تقدر أن تعيش على عبير الأرض .

تكتفي بالنور كنباتات الهواء .

غير أنك مضطر أن تقتل لتعيش ، و أن تسرق المولود الصغير من حضن أمه مختطفا حليبها لتبريد ظمئك .

لذلك فليكن عملك مظهرا من مظاهر العبادة .

و لتكن مائدتك مذبحا تقرب عليه التقادم النقية الطاهرة من الحقول و السهول ضحية لما هو أكثر منها نقاوة في أعماق الإنسان .

و إذ ذبحت حيوانا فقل له في قلبك :

" أن القوة التي أمرت بذبحك ستذبحني نظيرك " .

obeikandl.com

" عندما تحين ساعتي سأحترق مثلك " .

" لأن الشريعة التي أسلمتك إلى يدي ستسلمني إلى يدي من هو أقوي مني " .

" و ليس دمك و دمي سوى عصارة قد أعدت منذ الأزل غذاء لشجرة السماء " .

وإذا نهشت تفاحة بأسنانك فقل لها في قلبك :

" إن بذورك ستعيش في جسدي "

" و البراعم التي ستخرج منها في الغد ستزهر في قلبي " .

" و سيتصاعد عبيرك مع أنفاسي "

" و سأفرح معك في جميع الفصول " .

و إذا قطفت العنب من كرومك في أيام الخريف و حملته إلى المعصرة ، فقل له في قلبك :

" أنا كرمة مثلك و ستجمع أثماري و تحمل إلى المعصرة، و سيضعونني كالخمر الجديدة في زقاق جديدة " .

و عندما تستقي الخمرة من زقاقها في أيام الشـتاء انشـد في قلبك أنشودة لكل كأس تشربها .

و ليكن لك من أناشيدك أجمل التذكارات لأيام الخريف و للكرمة و المعصرة .

obeikandl.com

العمل

ثم جاء إليه فلاح و قال له : هات حدثنا عن العمل .

فأجاب قائلاً :

إنكم تشتغلون لكي تجـاروا الأرض و نفـس الأرض في سيرها .

لأن الكسول غريب عن فصول الأرض و هائم لا يسير في موكب الحياة السائرة بعظمة و جلال في فضاء اللانهايـة إلى غير المتناهي .

فإذا اشتغلت فمـا أنـت سـوى مزمـار تختلـي في قلبـك مناجاة الأيام فتتحول إلى موسيقي خالدة .

و من منكم يود أن يكون قصبة خرساء ، صماء و جميع ما حولها يترنم معا بأنغام متفقة ؟

قد طالما أخبرتم أن العمل لعنة و الشغل نكبة و مصيبة

obeikandl.com

أما أنا أقول لكم إنكم بالعمل تحققون جزءا من حلم الأرض البعيد ، جزءا خصص لكم عند ميلاد ذلك الحلم

فإذا واظبتم على العمل النافع تفتحون قلوبكم بالحقيقة لمحبة الحياة .

لأن من أحب الحياة بالعمل النافع تفتح له الحياة أعماقها و تدنيه من أبعد أسرارها .

و لكن إذا كنتم و أنتم في الآلام تدعون الولادة كآبة و دعامة الجسد لعنة مكتوبة على جباهكم ، فإنني الحق أقول لكم إنه ما من شيء يستطيع أن يمحو هذه الكتابة و يغسل جباهكم من آثارها سوى سعيكم و جهادكم .

و قد ورثتم عن جدودكم القول إن الحياة ظلمة ، فرحتم في عهد مشقتكم ترددون ما قاله قبلكم جدودكم المزعجون .

فالحق أقول لكم إن الحياة تكون بالحقيقة ظلمة حالكة إذا لم ترافقها الحركة .

و الحركة تكون عمياء لا بركة فيها إن لم ترافقها المعرفة .

و المعرفة تكون عميقة سقيمة إن لم يرافقها العمل .

و العمل يكون باطلا وبلا ثمر إن لم يقترن بالمحبة لأنكم إذا اشتغلتم بمحبة فإنما تربطون أنفسكم و افرادكم بعضها ببعض و يرتبط كل واحد منكم بربه .

و ماهو العمل المقرون بالمحبة ؟

هو أن تحوك الرداء بخيوط مسحوبة من نسيج قلبك مفكرا أن حبيبك سيرتدي ذلك الرداء .

هو أن تبني البيت بحجارة مقطوعة من مقلع حنانك و إخلاصك مفكرا أن حبيبك سيقطن في ذلك البيت .

هو أن تبذر البذور بدقة و عناية و تجمع الحصاد بفرح و لذة كأنك تجمعه لكي يقدم على مائدة حبيبك .

هو أن تضع في كل عمل من أعمالك نسمة من روحك

obeikandl.com

و تثق بأن جميع الأموات الأطهار محيطون بك يراقبون و يتأملون .

و كثيرا ما كنت أسمعكم تناجون أنفسكم كأنكم في نوم عميق قائلين : " إن الذي يشتغل بنحت الرخام فيوجد مثالا محسوساً لنفسه في الحجر الأصم هو أشرف من الفلاح الذي يحرث الأرض " .

" و الذي يستعير من قوس قزح ألوانا يحول بها قطعة النسيج الحقيرة إلى صورة إنسان هو أفضل من الإسكافي الذي يصنع الأحذية لأقدامنا " .

و لكنني أقول لكم ، لا في نوم الليل ، بل في يقظة الظهيرة البالغة إن الريح لا تخاطب السنديانة الجبارة بلهجة أحلى من اللهجة التي تخاطب بها أحقر أعشاب الأرض .

و العظيم العظيم ذلك الذي يحول هيمنة الريح إلى أنشودة تزيدها محبته حلاوة و عذوبة أجل ، إن العمل هو الصورة الظاهرة للمحبة الكاملة .

فإذا لم تقدر أن تشتغل بمحبة و كنت متضجرا ملولا فالأجدر بك أن تترك عملك و تجلس على درجات الهيكل تلتمس صدقة من العملة المشتغلين بفرح و طمأنينة .

لأنك إذا خبزت خبزاً و أنت تعصر عنبك فإن تذمرك يدس لك سما في الخمرة المستقطرة من ذلك العصير .

و إن أنشدت أناشيد الملائكة و لم تحب أن تكون منشدا، فإنما أنت تصم آذان الناس بأنغامك عن الإصغاء إلى أناشيد الليل و أناشيد النهار .

obeikandl.com

الفرح و الترح

ثم قالت له امرأة : هات لنا شيئا عن الفرح و الترح .

فأجاب قائلاً :

إن فرحكم هو ترحكم ساخرا .

و البئر الواحدة التي تستقون منها ماء ضحككم قد طالما ملئت بسخين دموعكم .

و هل في الإمكان أن يكون الحال على غير هذا المنوال ؟

فكلما أعمل وحش الحزن أنيابه في أجسادكم ، تضاعف الفرح في أعماق قلوبكم .

لأنه أليست الكأس التي تحتفظ خمرتكم هي نفس الكأس التي أحرقت في أتون الخزاف قبل أن بلغت إليكم؟

أم ليست القيثارة التي تزيد طمأنينة أرواحكم هي نفس الخشب الذي قطع بالمدى و الفؤوس ؟

obeikandl.com

فإذا فرحتم فتأملوا مليا في أعماق قلوبكم تجدوا أن ما أحزنكم قبلا يفرحكم الآن .

و إذا أحاطت بكم جيوش الكآبة فارجعوا بصائركم ثانية إلى أعماق قلوبكم و تأملوا جيدا تروا هنالك بالحقيقة أنكم تبكون لما كنتم تعتقدون أنه غاية مسراتكم على الأرض .

و يخيل إلى أن فريقا منكم يقول : " إن الفرح أعظم من الترح " ، فيعارضه فريق آخر قائلاً : " كلا ، بل الترح أعظم من الفرح " .

أما أنا فالحق أقول لكم : " إنهما توأمان لا ينفصلان يأتيان معا و يذهبان معا ، فإذا جلس أحدهما منفردا إلى مائدتكم ، فلا يغرب عن أذهانكم أن رفيقه يكون حينئذ مضطجعا على أسرتكم " .

أجل ، إنكم بالحقيقة معلقون ككفتي الميزان بين ترحكم و فرحكم . و أنتم بينهما متحركون أبدا ، ولا

تقف حركتكم إلا إذا كنتم فارغين في أعماقكم . فإذا جاء أمين خزائن الحياة يرفعكم لكي يزن ذهبه و فضته فلا ترفع كفة فرحكم ولا ترجح كفة ترحكم ، بل تثبتان على حالة واحدة .

obeikandl.com

المساكن

حينئذ دنا منه بناء و قال له : هات حدثنا عن البيوت .

فأجاب وقال : ابن من خيالك مظلة في الصحراء قبل أن تبني بيتا في داخل أسوار المدينة . لأنه كما أن لك بيتا في شفق حياتك كذلك للغريب الهائم فيك بيت كبيتك .

إن بيتك هو جسدك الأكبر .

ينمو في حرارة الشمس و ينام في سكينة الليل . و كثيرا ما ترافق نومه الأحلام . أفلا يحلم بيتك ؟ و هل يترك الحلم المدينة و يسير إلى الغابة أم إلى رأس التلة ؟

أواه لو أستطيع أن أجمع بيوتكم بيدي ، فأبددها في الأحراج و الرياض كما يبذر الزراع زرعه في الحقول .

أود لو كانت الدوية شوارع لكم ، و مسالك التلال الخضراء أزقة تطرقها أقدامكم عوضا عن أزقتكم و شوارعكم القذرة و يا ليتكم تنشدون بعضكم بعضا بين

الدوالي و الكروم ثم تعودون حاملين عطر الأرض في طيات أثوابكم .

و لكن هذه جميعها تمنيات لم تحن ساعتها بعد .

لأن آباءكم و جدودكم إذ خافوا عليكم الضياع و الضلال جمعوكم معا لكي تكونوا قريبين بعضكم من بعض . و سيبقي هذا الخوف مجمعا لكم زمنا بعد . و ستظل أسوار المدينة فاصلة مواقدكم عن حقولكم و لكن إلى حين .

بربكم أخبروني يا أبناء أورفليس ، ماذا تملكون في هذه البيوت ؟

و أي شيء تحتفظون به في داخل هذه البواب الموصدة ؟

هل عندكم السلام وهو القوة الصامتة التي تظهر ذاتكم الشديدة العزم المسترة في أعماقكم ؟

هل عندكم التذكارات ، و هي القناطر اللامعة التي تصل قنن الفكر الإنساني بعضهما ببعض ؟

هـل عنـدكم الجمـال ، الـذي يرتفـع بالقلـب مـن مصنوعات الخشب و الحجارة إلى الجبل المقدس ؟

بربكم أخبروني ، هل عندكم كل هذا في بيوتكم ؟

أم عندكم الرفاهية فقط ، و التحرق للرفاهية الممـزوج بالطمع ، الرفاهية التي تدخل البيت ضيفا ، ثـم لا تلبـث أن تصير مضيفا فسيدا عاتيا عنيفا؟

ثـم تتحـول إلى رائـض جبـار يتقلـد السـوط بيمينـه و الكلاب بيساره متخذا رغباتكم الفضلي ألعوبة يتلهي بها

و مع أن بنان هذه الرفاهية حريري الملمـس فـإن قلبهـا حديدي صلد . فهي تهذي من حدتكم لكي تنـاموا ، ثـم تقف أمام أسرتكم هازئة بكم و بجلال أجسادكم .

تضـحك مـن حواسـكم المدركـة ، و تطـرح بهـا بـين الأشواك كأنها اوعية سهلة الانكسار .

لأن التحـرق للرفاهيـة ينحـر أهـواء الـنفس في كبـدها فيرديها قتيلة ، ثم يسـير في جنازتهـا فـاغرا شـدقيه مرغيـا مزبدا .

أما أنتم يا أبناء الفضاء العائشين في الراحـة و النعـيم و غير المستريحين فإنكم لـن تؤخـذوا بالأشـراك و لـن يقـدر رائض على ترويضـكم . لأن بيـتكم لـن يكـون مرسـاة و لكنه سيكون سارية .

كلا و لن يكون غشاء براقا تغطي به الجـراح بـل جفنـا تحتفظ به العين .

و أنتم لن تطوورا أجنحتكم لكي تستطيعوا أن تـدخلوا من البواب ، و لن تحنوا رؤوسكم لـئلا تـنطح السـقف ، كلا و لن تخشوا أن تتنفسوا خوفا من أن تقوض أساسـات الجدران و تسقط على الأرض .

أجل و لن تقنطوا في القبور التي بناها أبناء الموت لأبناء الحياة .

و مع كل ما يزين منازلكم من الجلال و الجمال فإنها لن تستطيع أن تحتفظ بسركم أو أن تؤوي حنينكم .

لأن غير المحدود فيكم يقطن في منزل السماء الذي بوابته سحابة الصباح و نوافذه سكون الليل و أناشيده ؟

obeikandl.com

الثياب

ثم قال له الحائك : هات حدثنا عن الثياب .

فأجاب قائلا :

إن ثيابكم تحجب الكثير من جمالكم و لكنها لا تستر غير الجميل . و مع أنكم تنشدون بثيابكم حرية التستر و الانفراد فإنها تقيدكم و تستعبدكم . و يا ليت في وسعكم أن تستقبلوا الشمس و الريح بثياب بشرتكم عوضا عن ثياب مصانعكم .

لأن أنفاس الحياة في أشعة الشمس و يد الحياة تسير مع مجاري الرياح .

يقول بعضكم : إن الريح الشمالية دون غيرها قد حاكت الثياب التي نلبسها .

و أنا أقول لكم : نعم إن الريح الشمالية قد فعلت ذلك و لكن العار كان نولا لها و لدونة العضلات لها خيطا .

و عندما فرغت من عملها ضحكت منكم و هي تعصف في قلب الغاب . و لكن لا يغرب عن أذهانكم أن الحشمة هي ترس منيع متين للوقاية من عيون المدنسين .

فإذا زال المدنسون من الوجود فلا تصير الحشمة قيدا للفكر و تلويثا له في حماة العبودية ؟

لذلك ضعوا نصب عيونكم أن الأرض تبتهج بملامسة أقدامكم العارية و الرياح تتوق إلى ملاعبة شعوركم المسترسلة .

obeikandl.com

البيع و الشراء

ثم دنا منه تاجر و قال لـه : هـات حـدثنا عـن البيـع و الشراء .

فأجاب و قال :

إن الأرض تقدم لكم ثمارها و لو عرفتم كيـف تملـؤون أيديكم من خبراتها لما خبرتم طعم الحاجة في حياتكم .

لأنكم بغير مبادلة عطايـا الأرض لـن تجـدوا وفـرا مـن الرزق و لن يشبع جشعكم .

فيجـدر بكـم أن تتمـوا هـذه المقايضـة بـروح المحبـة و العدالة ، و إلا فإنها تؤدي بـالبعض مـنكم إلى الشـراهة و بغيركم إلى الطمع و المجاعة .

وإذا ذهبـتم إلى سـاحة المدينـة أيهـا الـدائنون في خدمـة البحر و الحقول و الكروم فاجتمعوا بالحاكـة و الخـزافين و جامعي الحنوط و الطيوب .

واضرعوا في تلك الساعة إلى الروح المتسلطة على الأرض ، أن تحل عليكم وتبارك مقاييسكم و موازينكم التي تعينون بها مقدار ما تجري عليه مقايضتكم .

و لا تأذنوا لذوي اليدي العقيمة من ذوي البطالة ان تشتركوا في معاملاتكم ، لنه لا شيء لهم يتاجرون به سوى أقوالهم التي يبيعونها لكم بأعمالكم .

بل قولوا لأمثال هؤلاء :

" تعالوا معنا إلى الحقل ، أو فاذهبوا مع أولادنا إلى البحر و ألقوا هنالك شباككم لأن الأرض و البحر يجودان عليكم متى عملتم ، كما يجودان علينا " .

و إن جاءكم المغنون و الراقصون و العازفون فاشتروا من عطاياهم ولا ترفضوهم ، لأنهم يجمعون الثمار و العطور نظيركم و مع أن ما يقدمونه لكم مصنوع من مادة الأحلام ، فإنه أجمل كساء و أفضل غذاء لنفوسكم .

و قبل أن تبرحوا ساحة المدينة تنظروا ألا ينصرف أحد منها فارغ اليدين .

لأن الروح السيدة في الأرض لا تنام بطمأنينة و سلام على تموجات الرياح حتى تشاهد بعينها أن الصغير فيكم قد نال كالكبير بينكم كل ما هو في حاجة إليه .

obeikandl.com

الجرائم و العقوبات

حينئذ وقف أحد قضاة المدينة و قال له : هات لنا خطبة في الجرائم و العقوبات .

فأجاب و قال :

عندما تسير أرواحكم هائمة فوق الرياح ،

و تمسون منفردين ، ليس لكم من يقيكم طوارئ السوء ، حينئذ تقترفون الإثم ضد غيركم و ضد أنفسكم .

و لأجل ذلك الإثم الذي تقترفونه يجب ان تقرعوا برهة و تنتظروا على بوابة القدوس .

فإن ذاتكم الإلهية بحر عظيم .

كانت نقية منذ الأزل و ستظل نقية إلى آخر الدهور .

و هي كالأثير لا ترفع إلا ذوي الأجنحة .

أجل ، إن ذاتكم الإلهية كالشمس ،

لا تعرف طرق المناجذ ولا تعبأ بأوكار الأفاعي .

obeikandl.com

غير انها لا تقطن وحيدة في كيانكم .

لأن كثيرا منكم لا يزال بشرا ، و كثيرا غيره لم يصر بشرا بعد ، بل هو مسخ لا صورة له يسير غافلا في الضباب وهو ينشد عهد يقظته .

فلا أود أن أحدثكم الآن إلا عن هذا الإنسان فيكم .

لأن هذا الإنسان – دون ذاتكم الإلهية و دون المسخ الهائم في الضباب – هو الذي يعرف الجرائم و العقوبات على الجرائم في كيانكم .

قد طالما سمعتكم تتخاطبون فيما بينكم عمن يقترف ف إثما كأنه ليس منكم بل غريب عنكم و دخيل فيما بينكم

و لكنني الحق أقول لكم : كما ان القديس و البار لا يستطيعان أن يتساميا فوق الذات الرفيقة التي في كل منكم

هكذا الشرير و الضعيف لا يستطيعان أن تحول لونها من الخضرة إلى الصفرة إلا بإرادة الشجرة و معرفتها الكامنة في أعماقها ، هكذا لا يستطيع فاعل السوء بينكم

أن يقترف إثما بدون إرادتكم الخفية و معرفتكم التي في قلوبكم .

فإنكم تسيرون معاً في موكب واحد إلى ذاتكم الإلهية .

أنتم الطريق و أنتم المطرقون .

فإذا عثر أحد منكم فإنما تكون عثرته عبرة للقادمين وراءه فيجتنبون الحجر الذي عثر به .

أجل ، و تكون عثرته توبيخا للذين يسيرون أمامه بأقدام سريعة ثابتة لأنهم لم ينقلوا حجر العثار من طريقة

و إليكم يا ابناء أورفليس هذه الكلمة التي و إن حلت ثقيلة على قلوبكم ، فهي الحقيقة بعينها : إن القتيل ليس بريئا من جريمة القتل .

و ليس المسروق بلا لوم في سرقته .

لا يستطيع البار أن يتبرأ من أعمال الشرير .

ولا الطاهر النقي اليدين بريء من قذارة المدنسين .

كثيرا ما يذهب المجرم ضحية لمن وقع عليه جرمه .

كما يغلب أن يحمل المحكوم عليه الأثقال التي كان يجب أن يحملها الأبرياء و غير المحكومين .

لذلك لا تستطيعون أن تضعوا حدا يفصل بين الأشرار و الصالحين أو الأبرياء و المذنبين .

لأنهم يقفون معا أمام وجه الشمس ، كما أن الخيط الأبيض و الخيط الأسود ينسجان معا في نول واحد .

فإذا انقطع الخيط الأسود ينظر الحائك إلى النسيج بأسره ثم يرجع إلى نوله يفحصه و ينظفه .

و كل من يشاء أن يلطم المجرم بيمينه يجدر به أولا أن ينظر ببصيرة ذهنه إلى روح من أوقع الجرم عليه .

و إن رغب أحد منكم في أن يضع الفأس على أصل الشجرة الشريرة باسم العدالة فلينظر أولاً إلى أعماق جذورها .

obeikandl.com

وهو لاشك واجد أن جذور الشجرة الشريرة و جـذور الصالحة ، و غير المثمرة كلها مشتبكة معا في قلـب الأرض الصامت .

أما أنتم أيها القضاة الذين يريدون أن يكونوا أبـرارا أي نوع من الأحكـام تصـدرون علـى الرجـل الأمـين بجسـده السارف بروحه ؟ أم أي عقاب تنزلون بـذلك الـذي يقتـل الجسد مرة و لكن الناس يقتلون روحه ألف مرة ؟

و كيف تطاردون الرجـل الـذي مـع أنـه خـداع ظـالم بأعماله ، فهو موجع القلب ذليل مهان بروحه ؟

أجل ، كيـف تسـتطيعون أن تعـاقبوا الـذين لهـم مـن توبيخ ضمائرهم ، وهو أعظم من جرائمهم أكبر قصاص على الأرض ؟

أليس توبيخ الضمير هو نفسـه العدالـة الـتي تتوخاهـا الشريعة التي تتظاهرون بخدمتها ؟

فأنتم لا تستطيعون أن تسكبوا بلسم توبيخ الضمير في قلوب الأبرياء كما أنكم لا تقدرون أن تنزعوه من قلوب الأشقياء .

فهو يأتي لذاته في ساعة من الليل لا ننتظرها داعيا الناس إلى النهوض من غفلتهم و التأمل بحياتهم و ما فيها من التعديات و المخالفات .

و أنتم أيها الراغبون في سبر غور العدالة كيف تقدرون ان تدركوا كنهها إن لم تنظروا إلى جميع الأعمال بعين اليقظة في النور الكامل ؟

في مثل هذا النور تعرفون أن الرجل المنتصب و الرجل الساقط على الأرض هما بالحقيقة رجل واحد واقف في الشفق بين ليل ذاته الإلهية . و أن حجر الزاوية في الهيكل ليس بأعظم من الحجر الذي في الهيكل ليس بأعظم من الحجر الذي في أسفل أساساته .

الشرائع

ثم قال له مشترع : و ماذا تعتقد بشرائعنا أيها المعلم ؟
فأجاب قائلا :

إنكم تستلذون أن تضعوا شرائع لأنفسكم ، بيد أنكم تستلذون بالأكثر أن تكسروها و تتعدوا فرائضها .

لذلك أنتم كالأولاد الذين يلعبون على الشاطئ ، يبنون أبراجا عظيمة من الرمل بصبر و ثبات ، ثم لا يلبثون أن يهدموها ضاحكين صاخبين .

فعندما تبنون أبراجكم الرملية يأتي البحر برمال جديدة إلى الشاطئ . وعندما تهدمون أبراجكم يضحك البحر منكم في نفسه ، لأن البحر يضحك من الأبرياء أبداً .

و لكن ماذا أقول في من ليست الحياة بحرا في عقيدتهم ، بل ليست الشرائع التي تسنها حكمة الإنسان البالغة أبراجا من الرمال فحسب أولئك الذين يحسبون أن الحياة صخرة

صلدة ، و أن الشريعة إزميل حاد يأخذونه بأيديهم لكي ينحتوا هذه الصخرة على صورتهم و مثالهم ؟ و ماذا أقول في المقعدين الذين يكرهون الراقصين ؟

و في الثور الذي يحب نيره و يتهم الوعل و الإبل و الظبي أنها حيوانات متمردة ناشرة ؟

و في الأفعى العتيقة الأيام التي لا تستطيع أن تخلع جلدها ، و لذلك تنبري متهمة جميع الحيوانات بالعرى وقلة الحياء ؟

و في ذلك الذي يسبق غيره إلى وليمة العرس ، و عندما يملأ جوفه من الأطعمة و يبلغ حده من النهم و الشراهة يترك الوليمة و يذهب في طريقة قائلا إن جميع الولائم مخالفة للناموس و جميع الذين يجتمعون إليها متعدو الشريعة ؟

ماذا أقول في أمثال هؤلاء ؟ إنهم كجميع الناس يقفون في أشعة الشمس و لكنهم يولون الشمس ظهورهم .

فهم لذلك لا ينظرون سوى ظلالهم . و ظلالهم هي عند التحقيق شرائعهم المقدسة .

و هل الشمس في اعتقادهم سوى منشإ الظلال ؟

و هل اعترافهم بالشريعة سوى أنهم ينحنون و يطأطئون رؤوسهم لكي يستقصوا ظلالهم على الأرض ؟

أما أنتم ، الذين يمشون و هم يحدقون إلى الشمس بأجفان غير مرتعشة ، فهل في الأرض من صور تستطيع أن تستوقفكم هنيهة ؟

و أنتم ، المسافر مع الريح أية صفحة من الصفحات الدالة على مجاري الرياح تقدر أن تقودكم في مسالككم ؟

و ما هي الشريعة البشرية التي تفيدكم إذا كنتم لم تحطموا نيركم على باب سجن من سجون الإنسان ؟

و أية شرائع ترهبون إذا كنتم ترقصون و لكنكم لا تعثرون بقيد من قيود العالم الحديدية ؟

obeikandl.com

و مـن هـو الرجـل الـذي يسـتطيع أن يـأتي بكـم إلى المحاكمة إذا مزقتم أثوابكم و لكنكم لم تضعوها في طريـق أحد من الناس ؟

أجل يا أبناء أورفليس ، إنكـم تسـتطيعون أن تخمـدوا صوت الطبل و تحلوا أوتار القيثارة و لكن من أبناء الإنسان يستطيع أن يمنع قبرة السماء عن الغناء ؟

obeikandl.com

الحرية

ثم قال له خطيب : هات حدثنا عن الحرية فأجاب قائلاً :

قد طالما رأيتكم ساجدين على ركبكم أمام ابواب المدينة و إلى جوانب المواقد تعبدون حريتكم .

و أنتم بذلك أشبه بالعبيد الذين يتذللون أمام سيدهم العسوف الجبار يمدحونه و ينشدون له وهو يعمل السيف في رقابهم .

نعم ، و في غابة الهيكل ، و ظل القلعة كثيرا ما رأيت أشدكم حرية يحمل حريته كنير ثقيل لعنقه و غل متين ليديه ورجليه .

رأيت كل ذلك فذاب قلبي في أعماق صدري و نزفت دماؤه لأنكم لا تستطيعون أن تصيروا أحرارا حتى تتحول

رغبتكم في السعي وراء إلى سلاح تتسلحون به ، و تنقطعون عن التحدث بالحرية كغايتكم و محجتكم .

إنكم تصيرون أحرارا بالحقيقة إذا لم تكن أيامكم بلا عمل تعملونه و لياليكم بلا حاجة تفكرون بها ، أو كآبة تتألمون لذكراها .

بل تكونون أحرارا عندما تنطق هموم الحياة و أعمالها أحقاءكم بمنطقة الجهاد و العمل . و تثقل كاهلكم بالمصاعب و المصائب و لكنكم تنهضون من تحت أثقالكم عراة طليقين .

لأنكم كيف تستطيعون أن ترتفعوا إلى ما فوق أيامكم و لياليكم إذا لم تحطموا السلاسل التي أنتم انفسكم في فجر إدراككم قيدتم بها ساعة ظهيرتكم الحرة ؟

ألا إن تسمونه حرية إنما هو بالحقيقة أشد هذه السلاسل قوة و إن كانت حلقاته تلمع في نور الشمس و تخطف أبصاركم .

و ماذا يجدر بكم طرحه عنكم لكي تصيروا أحرارا سوى كسر صغيرة رئة في ذاتكم البالية ؟

فإن كانت هذه الكسر شريعة جائرة وجب نسخها لأنها شريعة سطرتها يمينكم و حفرتها على جبينكم .

بيد أنكم لا تستطيعون أن تمحوها عن جباهكم بإحراق كتب الشريعة التي في دواوينكم كلا ، ولا يتم لكم ذلك بغسل جباه قضاتكم ، و لو سكبتم عليها ما في البحار من المياه .

و إن كانت طاغية تودون خلعه عن عرشه فانظروا أولا إن كان عرشه القائم في أعماقكم قد تهدم .

لأنه كيف يستطيع طاغية أن يحكم الحرار المفتخرين مالم يكن الطغيان اساسا لحريتهم والعار قاعدة لكبريائهم؟

وإن كانت هما ترغبون في التخلص منه فإن ذلك الهم إنما أنتم اخترتموه و لم يضعه احد عليكم .

و إن كانت خوفا تريدون طرده عنكم فإن جرثومة هـذا الخوف مغروسة في صميم قلـوبكم و ليسـت في يـدي مـن تخافون .

الحق أقول لكم ، إن الجميع الأشياء تتحرك في كيـانكم متعانقة على الدوام عناقا نصفيا : كـل مـا تشـتهون و مـا تخافون ، ما تتعشقون و ما تستكرهون ما تسـعون وراءه و ما تهربون منه .

جميع هذه الرغبات تتحرك فيكم كالأنوار و الظلال .

فإذا اضمحل الظل و لم يبق لـه مـن أثـر أمسـى النـور المتلألئ ظلا لنور آخر سواه .

و هكذا الحال في حريتكم إذا حلت قيودها أمست هـي نفسها قيدا لحرية اعظم منها .

obeikandl.com

العقل و العاطفة

ثم طلبت إليه العرافة ثانية قائلة : هات حدثنا عن العقل و الهوي .

فأجاب و قال :

كثيرا ما تكون نفوسكم ميدانا تسير فيه عقولكم و مداركم حربا عوانا على اهوائكم و شهواتكم .

و إنني أود أن أكون صانع سلام في نفوسكم .

فأحول ما فيكم من تنافر و خصام إلى وحدة و سلام .

و لكن أنَّى يكون لي ذلك ، إذا لم تصيروا أنتم صانعي سلام لنفوسكم و محبين جميع عناصركم على السواء ؟

إن العقل و الهوي هما سكان النفس و شراعها و هي سائرة في بحر العالم .

فإذا انكسر السكان أو تمزق الشراع فإن النفس لا تستطيع أن تتابع سيرها ، بل ترغم على ملاطمة الأمواج

يمنة و يسرة حتى تقذف بكم إلى مكان أمين تحفظـون بـه في وسط البحر .

لأن العقل إذا استقل بالسلطان على الجسد قيد أهـواءه و لكن الهواء إذا لم يرافقها العقل كانت لهيبا يتأجج ليفني نفسه .

فاجعل نفسك تسـمو بعقلـك إلى مسـتوى أهوائـك و حينئذ ترى منها ما يطربك و يشرح لك صدرك .

و ليكن لك من عقلـك دليـل و قائـد لهوائـك . لكـي تعيش أهواؤك في كل يوم بعـد موتهـا و تـنهض كالعنقـاء متسامية فوق رمادها .

و أرغـب إلـيكم أن تعنـوا بالعقـل و الهـوي عنـايتكم بضيفين عزيـزين علـيكم . فـإنكم ولا شـك لا تكرمـون الواحد أكثر من الثاني ، لأن الذي يعتني بالواحد و يهمل الآخر يخسر محبة الاثنين و ثقتهما .

وإن جلستم في ظلال الحور الوارفة بين التلال الجميلة ، تشاطرون الحقول و المروج البعيدة سلامها و سكينتها و صفاءها ، فقولوا حينئذ في قلوبكم : " إن الله يستريح في العقل " .

و عندما تعصف العاصفة و تزعزع الرياح أصول الشجار في الحراج و تعلن الرعود و البروق عظمة السماوات ، فقولوا حينئذ في أعماق قلوبكم متهيبين خاشعين : " إن الله يتحرك في الأهواء " .

و ما دمتم نسمة من روح الله وورقة في حرجه فأنتم أيضاً يجب أن تتسرحوا في العقل و تتحركوا في الأهواء .

الألم

ثم نهضت من بين الجمع امرأة و قالت له : هات حدثنا عن الألم .

فأجاب و قال : إن ما تشعرون به من الألم هو انكسار القشرة التي تغلف إدراككم . و كما أن القشرة الصلدة التي تحجب الثمرة يجب أن تتحطم حتى يبرز قلبها من ظلمة الأرض إلى نور الشمس ، هكذا أنتم أيضاً يجب أن تحطم الآلام قشوركم قبل أن تعرفوا معني الحياة.

لأنكم لو استطعتم ان تعيروا عجائب حياتكم اليومية حقها من التأمل و الدهشة ، لما كنتم ترون آلامكم أقل غرابة من أفراحكم ، بل كنتم تقبلون فصول قلوبكم كما قد قبلتم في غابر حياتكم الفصول التي مرت في حقولكم .

و كنتم ترقبون و تتأملون بهدوء و سكون شقاء أحزانكم و آلامكم .

أنتم مخيرون في الكثير من آلامكم .

و هذا الكثير من آلامكم هو الجرعة الشديدة المرارة التي بواسطتها يشفي الطبيب الحكيم الساهر في أعماقكم أسقام نفوسكم المريضة .

لذلك آمنوا بطبيب نفوسكم و ثقوا بما يصفه لكم من الدواء الشافي و تناولوا جرعته المرة بسكينة و طمأنينة .

لأن يمينه ، و إن بدت لكم ثقيلة ، فهي مقودة بيمين غير المنظور اللطيفة و الكأس التي يقدمها إليكم و إن أحرقت شفاهكم فهي مصنوعة من الطين الذي جبلته يدا الفخاري الأزلي بدموعه المقدسة .

obeikandl.com

معرفة النفس

ثم قال له رجل : هات حدثنا عن معرفة النفس .

فأجاب قائلا : إن قلوبكم تعرف في السكينة أسرار الأيام و الليالي ، و لكن آذانكم تتشوق لسماع صوت هذه المعرفة الهابطة على قلوبكم غير انكم تودون لو تعرفون بالألفاظ و العبارات ما تعرفونه بالأفكار و التأملات .

و تتوقون إلى أن تلمسوا بأصابعكم جسد أحلامكم العاري .

و حسن أنكم تتوقون إلى جميع ذلك .

فإن الينبوع الكامن في أعماق نفوسكم سيتفجر يوما ما و يجري منحدراً إلى البحر .

و الكنز المطمور في أعماقكم غير المتناهية سينقب في ساعة لا تعلمونها و تفتح أبوابه أمام عيونكم .

obeikandl.com

و لكـن حـذار أن تأخـذوا مـوازينكم لكـي تزنـوا بهـا كنزكم غير المعروف .

كلا ، ولا تسبروا غور معرفتكم بقياس محدود أو حبـل مشدود لأن الذات بحر لا وزن ولا قياس له .

أجل ، ولا تقل في ذاتك : " قد وجدت الحق " بل قل بالأحرى : " قد وجدت حقا " .

ولا تقـل : " قـد وجـدت طريـق الـنفس " بـل قـل بالأولى : " قد رأيت النفس تمشي على طريقي " .

لأن النفس تمشي على جميع المسالك و الطرق .

النفس لا تمشي على حبـل أو خـيط . كـلا ، ولا هـي تنمو كالقصبة .

النفس تطوي ذاتها كالبشنين ذي البتلات التي لا يحصى عددها .

obeikandl.com

التعليم

ثم قال له معلم : هات لنا كلمة في التعليم .

فقال : ما من رجل يستطيع أن يعلن لكم شيئا غير ما هو مستقر في فجر معرفتكم و أنتم غافلون عنه .

أما المعلم الذي يسير في ظل الهيكل محاطا بأتباعه و مريديه ، فهو لا يعطي شيئا من حكمته . بل إنما يعطي من إيمانه و عطفه و محبته ، لأنه إذا كان بالحقيقة حكيما فإنه لا يأمركم أن تدخلوا بيت حكمته ، بل يقودكم بالأحرى إلى عتبة فكركم و حكمتكم .

فإن الفلكي يستطيع أن يقص عليكم شيئا من معرفته لنظام السماء ، و لكنه لا يقدر أن يعطيكم معرفته .

و الموسيقي يستطيع أن ينشدكم أجمل ما في العالم من الأناشيد و الأنغام ، و لكنه لا يستطيع أن يمنحكم الأذن

التي تضبط النظام في النغم ولا الصوت الذي يوجد الألفة في الألحان .

و الرياضي النابغ في ضبط الأرقام يستطيع أن يوضح لكم عدد الموازين و المقاييس و خصائص كل منها و لكنه لا يستطيع أن يمنحكم معرفته .

لأن الوحي الذي يهبط على رجل ما لا يعير جناحيه لغيره .

و كما أن لكل منكم مقاما منفردا في معرفة الله إياه هكذا يجب عليه أن يكون منفردا في معرفته لله و في إدراكه لأسرار الأرض .

obeikandl.com

الصداقة

ثم قال له شاب : هات حدثنا عن الصداقة .

فأجاب و قال :

إن صديقك هو كفاية حاجاتك .

هو حقلك الذي تزرعه بالمحبة و تحصده بالشكر .

هو مائدتك وموقدك .

لأنك تأتي إليه جائعا و تسعي وراءه مستدفئا .

فإذا أوضح لك صديق فكره فلا تخش أن تصرح بما في فكرك من النفي ، أو أن تحتفظ بما في ذهنك من الإيجاب .

لأن الجبل يبدو للمتسلق له أكثر وضوحا و كبرا من السهل البعيد .

و إذا صمت صديقك و لم يتكلم فلا ينقطع قلبك عن الإصغاء إلى صوت قلبه .

obeikandl.com

لأن الصداقة لا تحتاج إلى الألفاظ و العبارات في إنماء جميع الأفكار و الرغبات و التمنيات التي يشترك الأصدقاء بفرح عظيم في قطف ثمارها اليانعات .

و إن فارقت صديقك فلا تحزن على فراقه .

لأن ما تعشقه فيه ، أكثر من كل شيء سواء ، ربما يكون في حين غيابه أوضح في عيني محبتك منه في حين حضوره .

ولا يكن لكم في الصداقة من غاية ترجونها غير أن تزيدوا في عمق نفوسكم .

لأن المحبة التي لا رجاء لها سوى كشف الغطاء عن أسرارها ، ليست محبة ، بل هي شبكة تلقى في بحر الحياة ولا تمسك إلا غير النافع .

و ليكن أفضل ما عندك لصديقك .

فإن كان يجدر به أن يعرف جزر حياتك .

فالأجدر بك أيضاً أن تظهر له مدَّها .

لأنه ماذا ترتجي من الصديق الذي تسعى إليه لتقضي معه ساعاتك المعدودة في هذا الوجود ؟

فاسع بالأحرى إلى الصديق الذي يحيي أيامك و لياليك : لأن له وحده قد اعطي أن يكمل حاجاتك ، لا لفراغك و يبوستك .

و ليكن ملاك الأفراح و اللذات المتبادلة مرفوعا فوق حلاوة الصداقة ، لأن القلب يجد صباحه في الندى العالق بالصغيرات ، فينتعش و يستعد قوته .

obeikandl.com

الحديث

ثم قال له عالم : هات حدثنا عن الكلام .

فأجاب و قال :

إنكم تتكلمون عندما توصد دونكم أبواب السلام مع أفكاركم .

و عندما تعجزون عن السكنى في وحدة قلوبكم ، تقطنون في شفاهكم و الصوت يلهيكم و يسليكم .

و في الكثير من كلامكم يكاد فكركم يقضي ألما و كآبة .

لأن الفكر طائر من طيور الفضاء ، يبسط جناحيه في قفص الألفاظ و لكنه لا يستطيع أن يحلق طائرا .

إن بينكم قوما يقصدون الثرثار المهذار ، ضجرا من الوحدة و الانفراد . لأن سكينة الوحدة تبسط أمام عيونهم صورة واضحة لذواتهم العارية يرتعدون لدي رؤيتها فيهربون منها .

و منكم الذين يتكلمون و لكنهم من غير معرفة و بدون سابق قصد يظهرون حقيقة لا يدركونها هم أنفسهم .

و منكم الذين أودع الحق قلوبهم و لكنهم يأبون أن يلبسوه حلة اللفظ و في أحضان هؤلاء تقطن الروح في هدوء و سكون .

فإذا رأيت صديقك على جادة الطريق أو جمعتك به ساحة المدينة فدع الروح التي فيك تحرك شفتيك و تدير لسانك .

أفسح المجال للصوت الذي في أعماق صوتك فيخاطب أذن أذنه .

لأن نفسه تحتفظ بسر قلبك كما يتذكر فمه طعم الخمرة الطيبة ، و إن نسي الفكر لونها و تحطمت الكأس التي حملتها .

obeikandl.com

الزمان

ثم قال له فلكي : أيها المعلم ماذا تعتقد بالزمان ؟

فأجاب قائلا :

أنت تريد أن تقيس الزمان غير المحدود ، الذي لا قياس له .

و تود أن تطبق سلوكك و تعين مسالك روحك على مقتضي الساعات و الفصول .

بل أنت تريد أن تجعل الزمان جدولا تجلس إلى حافته و تراقب انسجام مياهه و تصغي إلى خريرها .

بيد أن غير المقيد فيك بالزمان يعرف حقيقة أن الحياة لا تعرف حدود الزمان .

و أن ليس أمس سوى ذكري اليوم ، و ليس الغد سوى حلم اليوم .

oueikaneli.com

وأن القوة التي تترنم و تتأمل فيك لا تزال قاطنة ضمن حدود تلك الثانية الأولى التي فرقت الكواكب في الفضاء .

و هل بينكم رجل لا يشعر أن قوته على المحبة فائقة الحدود ؟بل من هو الذي لا يشعر بتلك المحبة غير المحدودة ، المحصورة في صميم كيانه ، ولا ينتقل من فكر محبة إلى فكر محبة و من أعمال محبة إلى أعماق محبة غيرها ؟

و الزمان ، أليس الزمان كالمحبة لا ينقسم ولا يستقصي؟

و لكن إذا شئتم أن تقسموا الزمان إلى فصول مختلفة في أفكاركم فاجعلوا كل فصل من فصوله يحيط بجميع الفصول الأخرى .

و اجعلوا الحاضر يعانق الماضي بالتذكارات و المستقبل بالحنين و التشوقات .

الخير و الشر

ثم قال له أحد شيوخ المدينة : هات حدثنا عن الخير و الشر .

فأجاب قائلا :

إنني أستطيع أن أحدثكم عن الخير ، لا الشر الذي فيكم .

لأنه أليس هو بعينه الخير المتألم آلاما مبرحة من تعطشه و مجاعته ؟

فإني الحق أقول لكم ، إن الخير إذا جاع سعى إلى الطعام ولو في الكهوف المظلمة ، وإن عطش فإنه يشرب حتى من المياه الراكدة المنتنة .

أنت صالح ، يا صاح ، إذا كنت واحدا مع ذاتك .

و إذا لم تك واحداً مع ذاتك فأنت لست بالشرير .

obeikandl.com

لأن البيت المنقسم على ذاتـه لـيس مغـارة للصـوص و لكنه بيت منقسم على ذاته لا أكثر ولا أقل .

و السفينة التي تضـيع سـكانها و تهـيم في البحـار بـين الجزائر تحدق بها الأخطار من كل جهة و لكنها لا تغرق إلى قعر البحر .

أنت صالح ، يا صاح إذا جاهدت لكي تعطي الناي من ذاتك .

و لكنك لست بالشرير إذا سعيت وراء منفعة نفسك .

لأنك في سعيك وراء منفعة كجذر الشجرة الذي يريـق دموعه على الأرض ثم يمتص الحليب من ثديها .

الحق أقول لك إن الثمرة لا تستطيع أن تقول للجـذر : " كن مثلي ناضجا ، جميلا ، جوادا ، يبـذل كـل مـا فيـه لأجل غيره " .

لأن العطاء حاجة من حاجات الثمرة لا تعـيش بـدونها كما أن الأخذ حاجة من حاجات الجذر لا يحيا بغيرها .

أنت صالح ، يا صاح ، إذا كنت تبلغ كمال يقظتك في خطابك .

بيد أنك لست بالشرير إذا نمت و كان لسانك يهذر من غير مرمى .

لأن الكلام ، و إن كان مجلبة للعثرات ، لبد أن يشدد لسانا ضعيفا .

أنت صالح ، يا صاح ، إذا كنت تسير إلى محجتك راسخ العزم ، ثابت الخطى .

غير أنك لست بالشرير إذا كنت تمشي إلى محجتك متلكئا .

لأن العرج أنفسهم لا يسيرون إلى الوراء .

و لكنك و انت صحيح القدم قوي الجسد ، انظر ألا تعرج أمام العرج و أنت تحسب ذلك رقة و ظرفا !

أنت صالح بطرق عديدة ، يا صاح ، وإذا لم تكن صالحا فإنك لست بالشرير بل أنت كسول متراخ .

و يا ليت الظباء تستطيع أن تعلم السلاحف البطيئة السرعة و الرشاقة !

أجل ، إن الخير الذي فيك إنما هو في حنينك إلى ذاتك الجبارة ، و هذا الحنين فيكم جميعكم .

غير أنه يشبه في البعض منكم سيلا جارفا يجري بقوة منحدرا إلى البحر ، فيحمل معه أسرار التلال و الأودية و أناشيد الأحراج و الجنان .

وهو في غيرهم أشبه بجدول صغير يسير في منبسط من الأرض يريق ماءه في الزوايا و المنعرجات ، و لذلك يطول به الزمان قبل أن يصل إلى الشاطئ .

و لكن لا يقل ذو الحنين الكثير إلى الحنين القليل : " لماذا أنت كسيح بطئ ؟ " .

لأن الصالح لا يسأل العراة : " أين ثيابكم ؟ " ولا الغرباء : " أين منازلكم ؟ " .

الصلاة

ثم قالت له الكاهنة : هات حدثنا عن الصلاة .

فأجاب و قال :

إنك تصلين في ضيقتك و في حاجتك .

و لكن حبذا لو أنك تصلين في كمال فرحك ووفرة خبراتك !

و هل الصلاة غير اتساع ذاتك في الأثير الحي ؟

فإذا كنت تتعزين في أن تسكبي كأس ظلمتك في الفضاء فإنك ولاشك تفرحين في أن تسكبى فيه فجر فؤادك .

و إذا كنت لا تستطيعين أن تمسكي عن البكاء عندما تدعوك نفسك إلى الصلاة فالأجدر بنفسك أن تنخسك

بمنخس حاد مرة بعد مرة على رغم الدموع المتساقطة على وجنتيك لكي تأتي إلى الصلاة فرحة باسمة .

وإذا صليت فأنت ترتفعين بروحك لكي تجتمعي في تلك الساعة بأرواح المصلين ، الذين لا تستطيعين أن تجتمعي بهم بغير الصلاة .

لذلك فلتكن زيارتك لذلك الهيكل غير المنظور مدعاة للهيام السماوي و الشركة الروحية السعيدة .

لأنك إذا دخلت الهيكل ولا غاية لك سوى السؤال فإنك لن تنالي شيئا . و إن دخلت الهيكل لتظهري وفرة اتضاعك وخشوعك فإنك لن تجدي رفعة .

بل لو جئت الهيكل و أنت ترجين أن تلتمسي خيرا لغيرك من الناس فإنك لن تجابي إلى سؤالك .

لأنه يكفيك أن تدخلي الهيكل من غير أن يراك احد .

لا أستطيع أن أعلمك الصلاة بالألفاظ .

obeikandi.com

لأن الله لا يصغي إلى كلماتك مالم يضعها – تعالى اسمه – على شفتيك و ينطق بها لسانك .

ولا أقدر أن أعلمك صلاة البحار و الأحراج و الجبال، بيد أنك و أنت ابنة الجبال و الأحراج و البحار تستطيعين أن تجدي هذه الصلاة محفورة على صفحات قلبك .

فإذا أصغيت في سكينة الليل سمعت الجبال و البحار و الأحراج تصلي بهدوء و خشوع :

" ربنا و إلهنا يا ذاتنا المجنحة ، إننا بإرادتك نريد ، و برغبتك ، نرغب و نشتهي . .

بقدرتك تحول لياليا ، و هي لك ، إلى أيام هي لك أيضاً . . .

إننا لا نستطيع أن نلتمس منك حاجة

لأنك تعرف حاجاتنا قبل أن تولد في أعماقنا ،

أنت حاجتنا و كلما زدتنا من ذاتك زدتنا من كل شيء " .

اللذة

حينئذ دنا منه ناسك يزور المدينة مرة في السنة و قال له : هات حدثنا عن اللذة .

فأجاب و قال :

اللذة أنشودة الحرية ، ولكنها ليست حرية بذاتها .

اللذة زهرة رغباتكم ، و لكنها ليست ثمرة لها .

اللذة عمق ينشد علواً ، و لكن لا هي بالعمق ولا هي بالعلو .

اللذة جناح قد أفلت من قفصه ، و لكنها ليست فضاء حرا طليقا ، أجل ، إن اللذة بالحقيقة أنشودة الحرية .

وإنه ليطربني أن تترنموا بها في أعماق قلوبكم و لكنني لا آذن لكم أن تستسلموا بقلوبكم للفناء .

إن فريقا من أحداثكم يسعون وراء اللذة سعيهم وراء كل شيء و لذلك يحكم عليهم بالقصاص و التأديب .

أما أنا أدينهم ، ولا أحكم عليهم و لكنني أسألهم أن يفتشوا و ينقبوا .

لأنهم سيجدون اللذة في تفتيشهم و لكنهم لن يجدوها وحدها فقط : فإن لها سبع شقيقات ، أحقرهن أوفر جمالاً منها .

و أنتم ألم تسمعوا بذلك الرجل الذي كان يحفر الأرض لكي يستخرج الجذور من أعماقها فوجد كنزا عظيما ؟

و فريق آخر من شيوخكم يتذكرون لذات شبابهم آسفين ، كأنما هي جرائم اقترفوها في أوقات السكر و الجهالة .

و لكن السف هو بالحقيقة غمامة تغم الفكر ولا تؤدبه .

و لذلك يجدر بهم أن يتذكروا لذاتهم بالحمد و الثناء كما يتذكرون حصاد الصيف .

و لكن إذا كان الأسف يعزيهم فلا بأس أن يتعزوا به .

و هنالك فريق ثالث ممن ليسوا بالأحداث لكي يجاهدوا مفتشين عن لذات جديدة ، ولا بالشيوخ لكي يتذكروا لذات شبابهم .

و لكنهم لشدة خوفهم من الجهاد في التفتيش و اللم في التذكارات يعرضون عن جميع اللذات ، لئلا يهملوا الروح أو يجدفوا عليها .

غير أن لهم من هذا الإعراض بعينه لذة لأنفسهم .

و لذلك فهم أيضاً يجدون كنزا لذواتهم مع أنهم يحفرون لأجل الجذور بأيد مرتعشة .

و لكن هل لك أن تخبرني ، و أنت الناسك الحكيم من هو الذي يستطيع أن يكدر على الروح صفوها ؟

أيستطيع البلبل أن يعكر صفو سكينة الليل ، أم الحاجب نور السماء ؟ و هل يقدر لهيب نارك أو دخانها أن يثقل كاهل الريح ؟

أم هل تعتقد أن الروح بركة هادئة و في استطاعتك كلما خطر لك أن تزعج هدوءها بعصاك ؟

كلما أنكرت على ذاتك التمتع بلذة ما تغلق بيديك على تلك اللذة في مستودعات كيانك .

ومن يدري هل تعود اللذة التي ترفضها اليوم فتترقب عودتك إليها في الغد ؟

لأن جسدك يعرف حاجاته الضرورية و ميراثه الحقيقي ، فلا يستطيع أحد أن يخدعه .

أجل ، إن جسدك هو قيثارة نفسك ، و أنت وحدك تستطيع أن تخرج منها أنغاما فتانة أو اصواتا مشوشة مضطربة .

و لعلك تسأل في قلبك قائلا : " كيف نستطيع أن نميز بين الصالح و الشرير من اللذات ؟ " .

و لكن لذة الزهرة أيضاً تقوم بتقديم عسلها للنحلة .

و النحلة تعتقد ان الزهرة ينبوع الحياة .

و الزهرة تؤمن بأن النحلة هي رسول المحبة المحيية .

و النحلة و الزهرة كلتاهما تعتقدان أن اقتبـاس اللـذة و تقديمها حاجتان لابد منهما وافتتان لا غني للحياة عنه .

أجل ، يا أبناء أورفليس ، كونوا في لذاتكم كالنحل و الأزهار .

obeikandl.com

الجمال

ثم قال له شاعر : هات لنا شيئا عن الجمال .

أين تفتش عن الجمال ، و كيف تقدر أن تهتدي إليه ما لم يكن هو نفسه طريقا و دليلا ؟

وكيف تستطيع أن تتحدث عن الجمال مالم ينسج لك ثوبا لائقا بخطابك ؟

فالحزين المتألم يقول : " الجمال رقة و لطف وهو يمشي بيننا كالأم الفتية الحيية من جلالها " .

و الغضوب يقول : " كلا ، بل الجمال قوة و بطش ، فهو كالعاصفة يهز الأرض تحت أقدامنا و السماء فوق رؤوسنا " .

و التعب الملول يقول : " إن الجمال لطيف المناجاة يتكلم في أرواحنا و يتموج صوته في سكون أذهاننا كما يرتعش النور الضئيل خوفا من الظل الظليل " .

obeikandl.com

غير أن القلق المضطرب يقول : " قد سمعنا الجمال يصيح بأعلى صوته بين الجبال " .

" يرافق صوته وقع الحوافر و خفقان الأجنحة وزمجرة الأسود " .

و عند انتصاف الليل يقول حارس المدينة : " سيبزغ الجمال مع الفجر من المشرق " .

و عند الظهيرة يقول العمال و عابرو السبيل : " لقد رأينا الجمال يطل على الأرض من نوافذ المغرب " .

و في الشتاء يقول جامعو الثلوج : " سيأتي الجمال مع الربيع وهو يقفز على التلال " .

و في الصيف يقول الحصادون : لقد رأينا الجمال يرقص مع أوراق الخريف و شاهدنا كومة من الثلج على رأسه " .

كل هذا سمعتكم تقولونه في الجمال .

obeikandl.com

غير أنكم في الحقيقة لم تقولوا فيه كلمة ، و إنما تحدثتم بحاجاتكم غير المكملة و الجمال ليس بالحاجة غير المكملة و الجمال ليس بالحاجة غير المكملة بل هو انشغاف و افتتان .

أجل ، و ليس الجمال فما متعطشا أو يدا ممدودة .

بل هو قلب متلهب و نفس مفتونة مسحورة .

و ليس بالصورة التي ترغبون في رؤيتها أو الأنشودة التي ترجون سماعها .

بل هو صورة تبصرونها ولو أغمضتم عيونكم ، و أنشودة تسمعونها ولو أغلقتم آذانكم .

و ليس بالعصارة الجارية في عروق الأشجار ولا بالجناح المتعلق بالمخالب .

بل هو بستان تنزينه الأزهار إلى الأبد وجوقة من الملائكة ترفرف بأجنحتها إلى منتهي الدهور .

نعم يا أبناء أورفليس ، إن الجمال هو الحياة بعينها سافرة عن وجهها الطاهر النقي .

و لكن أنتم الحياة و أنتم الحجاب .
و الجمال هو الأبدية تنظر إلى ذاتها في مرآة .
و لكن أنتم الأبدية و أنتم المرآة .

obeikandl.com

الدين

ثم دنا منه كاهن شيخ و قال له : هات حدثنا عن الدين .

فأجاب قائلاً :

وهل تكلمت اليوم في موضوع آخر غير الدين ؟

أليس الدين كل ما في الحياة من الأعمال و التأملات ؟

أليس الدين كل ما في الحياة مما ليس هو بالعمل ولا بالتأمل ، بل غرابة و عجب ينبعان من جداول النفس أبدا و إن عملت اليدان في نحت الحجارة أو إدارة الأنوال ؟

من يستطيع أن يفصل إيمانه عن أعماله و عقيدته عن مهنته ؟

من يستطيع أن يبسط ساعات عمره أمام عينيه قائلاً : " هذه لله و هذه لي هذه لنفسي ، و هذه لجسدي ؟ " .

obeikandl.com

فإن جميع ساعات الحياة أجنحة ترفرف في الفضاء منتقلة من ذات إلى ذات .

و إن من ينظر إلى فضيلته نظرته إلى أفضل حلة يلبسها فالأجدر به أن يسير بين الناس عاريا .

لأن الريح و الشمس لا تمزقان بشرته ؟

و كل من يقيد سلوكه و تصرفه بقيود الفلسفة و التقليد إنما يحبس طائر نفسه الغربد في قفص من حديد .

لأن أنشودة الحرية لا يمكن أن تخرج من بين العوارض و القبضان .

و كل من يعتقد أن العبادة نافذة يفتحها ثم يغلقها فهو لم يبلغ بعد هيكل نفسه المفتوحة نوافذه من الفجر إلى الفجر .

إن حياتكم اليومية هي هيكلكم و هي دياناتكم فخذوا معكم كل ما لكم عندما تدخلون هيكلها . خذوا السكة و الكور و المطرقة و الطنبور و كل ما لديكم من الآلات التي

صنعتموها رغبة في قضاء حاجاتكم أو سعيا وراء مسرتكم و لذاتكم .

لأنكم لا تستطيعون أن ترتفعوا بتأملاتكم فوق أعمالكم ولا تقدرون أن تنحدروا بتصرفاتكم إلى أدنى من خيباتكم .

و ليرافقكم جميع معارفكم من أبناء الإنسان .

لأنكم لا تستطيعون في عبادتكم أن تحلقوا فوق آمالهم ولا أن تضعوا ذواتكم إلى أحقر من يأسهم .

و إن شئتم أن تعرفوا ربكم فلا تعنوا بحل الأحاجي و الألغاز .

بل تأملوا ما حولكم تجدوه لاعباً مع أولادكم .

و ارفعوا أنظاركم إلى الفضاء الوسيع تبصروه يمشي في السحاب و يبسط ذراعيه في البرق و ينزل إلى الأرض مع الأمطار .

تأملوا جيداً تـروا ربكـم يبتسـم بثغـور الأزهـار ، ثـم ينهض و يحرك يديه بالأشجار .

obeikandl.com

الموت

ثم قالت له المطرة : نود أن تحدثنا الآن عن الموت .

فقال لها :

إنكم تريدون أن تعرفوا أسرار الموت .

و لكن كيف تجدونها إن لم تسعوا إليها في قلب الحياة ؟

لأن البومة التي لا تفتح عينيها إلا في الظلمة البومة العمياء عن نور النهار ، لا تستطيع أن تنزع الحجاب عن أسرار النور .

فإذا رغبتم بالحقيقة في أن تنظروا روح الموت فافتحوا أبواب قلوبكم على مصاريعها لنهار الحياة .

لأن الحياة و الموت واحد ، كما أن النهر و البحر واحد أيضاً .

ففي أعماق آمالكم ورغباتكم تتكئ معرفتكم الصامتة لما وراء الحياة .

و كما تحلم الحبوب الهاجعة تحت الثلوج بالربيع ، هكذا تحلم قلوبكم بربيعها .

لذلك فلتكم ثقتكم عظيمة بالأحلام ، لأن بوابة الأبدية مختفية فيها .

أما خوفكم من الموت فهو أشبه بارتعاش الراعي الواقف أمام الملك الذي يريد أن يرفع يمينه فوقه لكي يكرمه و ينعم عليه بوسام الرضا و الفخر .

أفلا يفرح الراعي من ارتعاشه لأن مليكه يقلده و سام الشرف و الرضا ؟

و لكن ألا يشعر مع ذلك بارتعاشه و خفقان قلبه ؟

وهل موت الإنسان هو أكثر من وقوفه عاريا في الريح و ذوبانه في حرارة الشمس ؟

أم هل انقطاع التنفس غير تحرير النفس من دورانه المتواصل ، لكي يستطيع أن ينهض من سجنه و يحلق في الفضاء ساعيا إلى خالقه من غير قيد ولا عائق ؟

إنكم لا تستطيعون أن تترنموا بالأناشيد حتى تشربوا من نهر الصمت ولا تستطيعون أن تباشروا الصعود إلى الجبال حتى تبلغوا قننها . و لن تقدروا أن ترقصوا حتى تتسلم الأرض جميع أعضائكم .

obeikandl.com

الوداع

و كان المساء .

فقالت العرافة المطرة : مبارك هذا اليـوم و هـذا المكـان الذي جمعنا بك . و مباركة روحك التي خاطبت أرواحنا .

فأجاب و قال : " و هل أنا الذي تكلمـت ؟ ألم أكـن أنا سامعاً نظيركم ؟ " .

ثم نزل عن درجات الهيكـل و مشـي ، فتبعـه الشـعب بأسره . و ظل يجد في سيره و الشعب يلحق به حتى وصـل إلى المرفإ فصعد إلى سفينته ووقف على ظهرها .

حينئذ رفع صوته و الشعب ينظر إليه و قال لهم :

يا أبناء أورفليس ، إن الريح تأمرني أن أفارقكم .

و مع أنني لست كالريح عجولاً ، فإنني مرغم أن أطيع أوامرها .

لأننا نحن الهائمين ، الذين ينشدون أبداً أشد الطرق وحدة لا نبدأ أعمال نهار ما عندما نفرغ من نهار غيره ولا يجدنا شروق شمس حيث تركنا الغروب الذي تقدمه .

لأننا ، و إن نامت الأرض مستيقظون نوالي مسيرنا .

نحن بذور نبات غريب عجيب و في بلوغنا و اكتمال نمو قلوبنا قد و هبنا منحة للريح فتفرقنا على وجه الأرض .

قليلة كانت أيامي بينكم ، و أقل منها كلماتي التي تركتها لكم .

و لكن إذا تلاشي صوتي في آذانكم وزالت محبتي من قلوبكم فحينئذ آتي إليكم سريعا .

و أخاطبكم ثانية بقلب أوفر عطفا من قلبي و شفتين أجزل إثمارا للروح من شفتي .

أجل ، إنني سأرجع مع المد .

فـإن حجـبني المـوت عـنكم الآن و ضـمني الصـمت العظيم بين طيات سكينته ، فإنني سأنشـد إدراككـم مـرة أخرى و لن تذهب أتعابي في ذلك الحين عبثا .

فإن كنت قد خاطبتكم اليوم بالحق الصريح ، فإن هـذا الحق سيظهر ذاته لكـم في ذلـك اليـوم بصـوت أنقـي مـن صوته اليوم ، و بكلمات أقرب إلى أفكـاركم مـن كلماتـه اليوم .

إنني ماضٍ مع الريح يـا أبنـاء أورفلـيس و لكـنني لـن أهبط إلى العالَم السفلي ، إلى الفراغ المرعب .

فإذا لم يكن هذا اليوم قد أكمل حاجـاتكم و أفعمكـم من محبتي ، فليكن موعدا ليوم آخر .

فإن حاجات الإنسـان تتبـدل و لكـن محبتـه لا تـتغير و مثلها رغبته في أن تشبع المحبة حاجاته .

فاعلموا إذن أنني سأرجع إليكم مـن عـالم الصـمت و السكينة .

لأن الضباب الذي يفارق الأرض عند بزوغ الفجر من غير أن يترك سوى قطرات صغيرة من الندي في الحقول إنما يرتفع في الجو لكي يتجمع هنالك فيؤلف السحاب الذي لا يلبث أن يعود إلى الأرض مطراً غزيراً . و قد كنت بينكم مثل هذا الضباب .

ففي سكينة الليل كنت أمشي في شوارعكم ، و كنت أدخل بروحي إلى أعماق منازلكم .

و كانت نبضات قلوبكم تتردد في قلبي و سحائب لهاثكم تنتشر على وجهي ، و قد عرفتكم بعجزكم و بجركم .

نعم ، قد عرفت فرحكم و حزنكم و في هجوعكم كانت أحلامكم أحلاما لي .

و كثيرا ما كنت بينكم بحيرة بين الجبال .

فكانت ترتسم على صفحات مرآتي قممكم الشاهقة و منحدراتكم المتعرجة حتى قطعان أفكاركم ورغباتكم العابرة عليها .

و كان ضحك أولادكم يجرى إلى سكينتي مع مياه الجداول ، و كان حنين شبانكم و شاباتكم يأتي إلى مع مجاري النهار .

و مع أن الجداول و الأنهار كانت تبلغ أعماقي فإنها لم تكن تنقطع البتة عن الغناء .

و لكن هنالك ما هو أحلى من الضحك و أعذب من الحنين بين من جاء إلى منكم ، ألا وهو الكائن غير المحدود فيكم .

الإنسان البالغ العظمة فيكم الذي لستم سوى أنسجة و عضلات في كيانه ، و المرنم الذي ليس غناؤكم أمام غنائه سوى اختلاج و هيمنة .

و أنتم لا تعرفون العظمة إلا بهذا الإنسان العظيم الذي فيكم ، و عندما رأيته رأيت حقيقتكم و أحببتكم .

لأنه هل في الوجود علو أو بعد تصل إليهما المحبة ولا يحيط بهما في دائرة كيانه العظيمة الاتساع ؟

أم هل هناك تصورات أو تمنيات أو أحلام تستطيع أن تسمو فتبلغ أقصي ارتفاعه ؟

أجل إن هذا الإنسان العظيم هو بالحقيقة كالسنديانة الجبارة المغطاة ببراعم التفاح الجميلة .

فقدرته تقيدكم بالأرض و شذاه يرفعكم إلى أعالي الفضاء و في عزمه و صبره على عواصف الطبيعة أنتم خالدون .

قد أخبرتم فيما مضي أنكم كالسلسلة ، ضعفاء كأضعف حلقة في كيانكم .

غير أن هذا إنما هو نصف الحقيقة . فأنتم أقوياء كأقوى حلقة من سلسلتكم .

لأننا إذا حكمنا عليكم بأصغر أعمالكم كنا كمن يحكم على قوة البحر بما في زبده من الضعف و سرعة الزوال .

و إن حكمنا عليكم بخيبتكم كنا كمن يلوم الفصول لتعاقبها و عدم ثباتها .

أجل ، إنكم بالحقيقة كالأوقيانوس العظيم .

فمع أن سفنا عظيمة تنتظر مد البحر و جزره على شواطئكم فأنتم كالأوقيانوس ، لا تستطيعون أن تعجلوا مدكم و جزركم .

و أنتم كالفصول أيضاً يا أبناء أورفليس .

فإنكم تنكرون ربيعكم في شتائكم .

و لكن الربيع لا ينكركم ، بل يبتسم لكم في غفلته ، من غير أن يغضب أو يتعكر صفوه .

ولا يخطر لكم أني أقول لكم هذا لكي أحملكم على أن تهمسوا بعضكم لبعض قائلين : " قد أجاد في مديحنا و الثناء علينا ولم ير سوى الصالح فينا " .

فإنني أنقل إليكم بألفاظي ما تدركونه أنتم بأفكاركم .

و هل المعرفة اللفظية سوى ظل للمعرفة غير اللفظية ؟

لأن أفكاركم و كلماتي ما هي عند التحقيق إلا أمواج تقذف بها بحيرة الذاكرة المختومة التي تحتفظ بدواوين ماضينا و مجرياته ، وحوادث الأيام المتصرمة عندما لم تكن الأرض تعرفنا و كانت تجهل ذاتها أيضاً و احلام الليالي عندما كانت الأرض خربة خاوية خالية .

قد جاءكم الحكماء قبلي لكي يقدموا لكم من حكمتكم ، أما انا فقد أتيت إليكم لكي أغرف من معين حكمتكم .

و ها أنذا قد وجدت ما هو أعظم من الحكمة .

قد وجدت روحا ملتهبة فيكم ما برحت تستزيد جمع مبعثرات ذاتها غير أنكم كنتم و مازلتم غافلين عن اتساعها و تعاظمها تنوحون و تبكون على ايامكم الزائلة .

فإن الحياة تفتش عن الحياة في أجسام الذين يخافون القبور .

ولكن لا قبور ههنا .

لأن هذه الجبال والسهول إنما بالحقيقة سرير و مرقاة . فإذا قادتكم خطواتكم إلى الحقل الذي وضعتم فيه أسلافكم فتأملوا جيدا جميع جهاته . تروا ذواتكم ترقصون مع أولادكم جنبا إلى جنب .

فإنني الحق أقول لكم : إنكم كثيرا ما تفرحون و أنتم لا تعرفون .

و آخرون جاؤوا إليكم و عللوكم بالمواعيد الذهبية التي تبنون عليها صروح إيمانكم فوهبتم لهم ثروة و قوة و عظمة .

أما أنا فقد أعطيتكم أحقر موعد و لكنكم أظهرتم نحوي أريحية لم تظهروها لسواي .

فقد أعطيتموني تعطشي الشديد للحياة .

فإنني أصارحكم القول إنه ما من عطية في هـذا العـالم أجزل فائدة للإنسان من العطية التي تحول كل مـا في كيانـه من الميول و الرغبات إلى شـفتين محترقـتين عطشـا و تجعـل حياته جميعها ينبوعا حيا باقيا .

وهو ذا فخري و أجري .

في أي ساعة جئـت الينبـوع متعطشـا أجـد المـاء الحـي المتدفق من فم الينبوع متعطشا أيضاً .

فيشربني هذا الماء كما اشربه .

و قد خيل إلى البعض منكم أنني عيوف حيي فلا أقبـل عطية من عطاياكم .

علـى أنـني بالحقيقـة أكـره قبـول الأجـور و لكـنني لا ارفض العطايا .

و إنه غير خاف عليكم أنني كنت أتقوت بأثمار العليـق و التـوت بـين الـتلال في حـين أنكـم كنـتم ترغبـون في أن أجالسكم حول موائدكم .

و كنت أنام في رواق الهيكل في حين أن كلا منكم كـان يفرح لو يتاح له أن يؤويني في بيته .

و لكن أليست محبتكم الشديدة الممزوجة بدموع العنايـة بأيامي و ليـالي هـي الـتي جعلـت الطعـام حلـوا في فمـي وحفت نومي بالوحي و الأحلام ؟

لأجل هذا أباركم من أعماق قلبي .

لأنكم تعطون كثيرا ولا تعرفون أنكم تعطون شيئا .

الحق أقول لكم : إن اللطف الذي ينظر إلى ذاته في مرآة ينقلب حجرا. و العمل الصالح الذي يسمي نفسه بأسماء جميلة يصير والدا للعنة كريهة .

و قد دعاني فريق منكم متوحداً ثملا بمحبة وحدتي .

أما أنتم فقلتم بعضكم لـبعض : لا تبـالغوا في عذلـه و ملامته ، فإنه يحب أن يؤلف مجلسه من اشجار الأحـراج و ليس من أبناء الإنسان .

وهو يستلذ الجلوس على رؤوس التلال و النظر إلى مدينتنا . و إنني بالحقيقة قد تسلقت التلال و مشيت في أراضٍ بعيدة جدا .

لأنه كيف يمكنني أن أراكم من غير أن أكون في علو شاهق أو بعد شاسع ؟

أو كيف يستطيع أحد أن يكون قريبا ما لم يكن بعيدا ؟

و غيركم من كان يناديني و لكن بغير الألفاظ و يقول لي :

" أيها الغريب ، أيها الغريب المتعشق ما لا يبلغ من الشاهقات لماذا تقطن بين قنن الجبال حيثما تبني النسور أعشاشها ؟

لماذا تسعى إلى ما لا سبيل للحصول عليه ؟

أي نوع من العواطف تريد أن تصطاد لشبكتك .

و ماهي الطيور البخارية التي تفتش عنها في السماء ؟

هلم إلينا و كن واحدا منا .

اهبط من علوك و سكن حدة مجاعتك بخبزنا و أخمد لظي عطشك بلذيذ خمرتنا ! " .

قالوا هذه الأقوال كلها في وحدة نفوسهم .

ولو كانت وحدتهم أعمق مما هي لأدركوا أنني لم أكن اسعى إلا إلى إدراك سر أفراحكم و آلامكم .

ولم أكن أصطاد سوى ذواتكم الكبرى السائرة نحو السماء .

و لكن الصياد قد صار صيدا :

لأن كثيرا من سهامي لم تترك قوسي إلا لكي تسعى إلى صدري و الطائر قد صار زحافة :

لأنني عندما بسطت جناحي في الشمس صار ظلهما على الأرض سلحفاة .

و انا المؤمن صرت مرتابا :

لأنني كثيرا ما وضعت أصبعي في جنبي رجاء أن ابلغ كمال إيماني بكم و معرفتي لحقيقتكم .

و بهذا الإيمان و هذه المعرفة أقول لكم :

إنكم لستم محصورين في سجون أجسادكم كلا ، و لستم مقيدين بجدران بيوتكم و حدود حقولكم .

فإن الذات الخفية التي تمثل حقيقتكم تقطن فوق الجبال و تهيم مع الرياح لأنها لا تدب إلى الشمس مستدفئة ولا تلتمس طريقها في الظلمة مستنجدة بل هي روح حرة طليقة تغلف الأرض و تركب دقائق الثير .

و إن جاءت كلماتي هذه غامضة علي أفهامكم فلا تسعوا وراء إيضاحها .

فإن الغموض و السديم هما بداءة كل شيء لا نهايته .

و إنني بملء الرغبة اود أن تتذكروني كبداءة .

و الحياة و جميع الكائنات الحية إنما تتصور أولا في الضباب و ليس في البلور .

و من يدري أن البلور لم يكن ضبابا متجمدا ؟

و هذا ما أود أن تحتفظوا به مع ذكراي :

إن ما يبدو لكم ضعيفا فيكم هو أقوى و أثبت ما في كيانكم؛ لأنه أليس لهاثكم هو الذي يقيم بنيان عظامكم و يشده ؟

بل أليس الحلم الذي لم يحلم به أحد منكم قط هو الذي بني مدينتكم و عمل كل ما فيها ؟

فلو كان لكم أن تنظروا مجاري ذلك اللهاث لما كانت لكم حاجة إلى أن تنظروا شيئا آخر غيرها .

ولو استطعتم أن تسمعوا مناجاة ذلك الحلم لما كنتم ترغبون في سماع اي صوت آخر في العالم .

و لكنكم لا تنظرون ولا تسمعون و حسنا تفعلون .

فإن الحجاب المسدول على عيونكم سترفعه اليد التي حاكته .

و الطين الذي يسد آذانكم ستنتزعه الأصابع التي جبلته .

و حينئذ تبصرون .

و حينئذ تسمعون .

بيد أنكم لن تتحسروا على أنكم كنتم عميا أو صما .

لأنكم في ذلك اليوم ستعرفون المقاصد الخفية في كل شيء و ستباركون الظلمة كما تباركون النور و عندما قال هذا نظر حواليه ، فرأى ربان سفينته منتصبا أمام السكان وهو ينظر تارة إلى الشرعة و طورا إلى البحر .

فقال :

إن ربان سفينتي واسع الصدر جزيل الصبر . فإن الريح تهب بعنف و الشرعة مضطربة . حتى إن السكان نفسه يحتاج إلى من يدبره .

ومع كل هذا فإن ربان سفينتي ينتظر سكوتي .

وهؤلاء الملاحون رفقائي الذين سمعوا جوق المنشدين في البحر الأعظم ، قد أصغوا إلى بطول أناة .

و لكنهم لن ينتظروا ثانية واحدة بعد .

فإنني على اتم الهبة للسفر .

فقد وصل الجدول إلى البحر و أتيح للأم العظيمة أن تضم ابنها إلى صدرها مرة ثانية .

فالوداع ، الوداع يا ابناء أورفليس .

قد غربت شمس هذا اليوم .

و أغلق علينا ههنا كما تغلق زنبقة الغور أوراقها على غدها فكل ما اعطينا ههنا سنحتفظ به .

و إذا لم يكن كافيا لسد حاجاتنا فإننا نأتي ثانية إلى هذا المكان و نمد أيدينا معا لمن أعطانا .

ولا تنسوا أنني سآتي إليكم مرة أخرى .

فلن يمر زمن قليل حتى يشرع حنيني في جمع الطين و الزبد لجسد آخر . . .

قليلا ولا ترونني و قليلا و ترونني ،

لأن امرأة أخرى ستلدني .

أودعكم و أودع الشباب الذي قضيت بينكم .

فإننا في الأمس قد اجتمعنا كما في حلم .

قد أنشدتم لي في وحدتي و بنيت لكم من أشواقكم برجا في السماء .

و لكن عهد النوم قد انقضي ، و الحلم قد مضى و لسنا الآن عند بزوغ الفجر .

لأن الظهيرة ترقص فوق رؤوسنا و يقظتنا الناقصة قد تحولت إلى نهار كامل ، فيجدر بنا أن نفترق .

فإذا جمعنا شفق الذكرى مرة أخرى فإننا حينئذ نتكلم معا ، و حينئذ تنشدون لي أنشودة أوقع في النفس من أنشودة اليوم .

و ان اجتمعت أيدينا في حلم ثان فهنالك سنبني برجا آخر في السماء .

و عندما قال هذا أشار إلى الملاحين إشارة تؤذن بالسفر فرفعوا مرساة السفينة في الحال وحلوا حبالها و ساروا نحو الشرق .

فصرخ الشعب كله بصوت عظيم كأنه صادر من قلب واحد ، و تعالى صراخهم في الشفق فحملته دقائق الهواء فوق البحر كأنه صوت بوق عظيم .

أما المطرة العرافة فكانت صامتة وحدها ، تشيع السفينة بنظرها حتى توارت في الضباب .

ثم تفرق الشعب كل في سبيله ، بيد أنها ظلت وحدها واقفة على شاطئ البحر تردد في قلبها كلمات المصطفى الخيرة :

" قليلاً ولا ترونني ، قليلاً و ترونني ، لأن امرأة أخرى ستلدني " .

obeikandl.com